صوت الأزهر

جامعاً وجامعة

رئيس التحرير
سليمان قناوى

١٤ صفحة | ١ جنيه

www.Alazhar.gov.eg

الجمعة ١١ من رجب ١٤٣٣هـ ـ ١ من يونيه ٢٠١٢ م

عندما كانت الإسكندرية.. حاضرة لمذهب أهل السُنة والجماعة

بقلم:
د.خالد محمود هيبة

الإسكندرية مدينة الحضارات، يتحدث نسيجها حكايات وتروى أحياؤها روايات عن تواصل الحضارات، فهى مثل حى على التعايش والتكامل والتواصل بين الحضارات والثقافات فهى من أقدم المدن المخططة العامرة فى العالم منذ أنشأها " الإسكندر المقدونى " عام "٣٣٢ ق.م" ووجه المخطط العمرانى الإغريقى " دينوقراطيس" بإعداد التخطيط الرباعى المشهور عنها وذلك تواصلاً مع قرية "راكوديس" الفرعونية التى عمرت هذه البقعة الاستراتيجية قبل ذلك بعدة قرون،ومنذئذ فالإسكندرية احتضنت وأنبتت ونمت فيها الحضارات المتوالية التى تتحدث عنها أركانها، وبخاصة مع وجود "مكتبة الإسكندرية القديمة" التى حملت لقرون عدة مصابيح التقدم والحضارة التى أضاءت للعالم نور العلم والمعرفة، لتصبح الإسكندرية خلال تلك الأزمنة عاصمة للعالم بأسره .

و"الإسكندرية" بعد "القدس". من المدن النادرة فى الشرق التى تعايشت فيها كوكبة الأجناس والألوان المؤمنين بالأديان السماوية الثلاثة اليهودية، والمسيحية، والإسلام، تاركين فيها ذاكرتهم وتراثهم وبصماتهم، لتحكى عن قصة الزمان وعبقرية المكان فى ملحمة باهرة ومنظومة ساحرة وسيمفونية تاريخية نادرة وفريدة،فهى متفردة ورائدة.

هكذا الإسكندرية كانت فرعونية التاريخ. إغريقية النشأة. متوسطية الثقافة، ولكنها كانت كذلك درعاً من دروع الإسلام وثغراً من ثغوره؛ حفظ العقيدة لقرون عدة، قبل أن يستلم الأزهر الشريف الراية منها وإلى ما شاء الله تعالى.

ففى فترة تاريخية من أعجف فترات التاريخ الإسلامى، استطاع "الفاطميون" أن يستولوا على سدة الحكم فى مصر من "العباسيين" وذلك فى عام "٩٦٩م- ٣٥٨هـ" بعد تمام تأسيس دولتهم "الفاطمية" فى المغرب العربى، ليؤسسوا فور استيلائهم على مصر مدينة (القاهرة) لتصبح عاصمة دولتهم بعد (المهدية) و(القيروان) فى (تونس)، وليأسسوا فى ذات الوقت لمذهبهم الشيعى فى مصر، ليصبح المذهب الرسمى للدولة فى ظل رفض من شعب مسلم لم يعرف الطائفية منذ فتحه المسلمون الأوائل وضموه إلى حظيرة الإيمان ودولة التوحيد.

كما أسس هؤلاء لمسجد جامع ليكون بمثابة مركز لنشر مذهبهم الشيعى ورمز لانتصارهم على الدوله العباسية، وهو (جامع القاهرة)، الذى تحول مسماه بعد ذلك ليصبح (الجامع الأزهر) نسبه للسيدة (فاطمة الزهراء)- (رضى الله عنها) الذى انتسب مسمى (الدولة الفاطمية) إليها كذلك. وهى منها براء. وقد حكم من خلال تلك الدولة أربعة عشر خليفة.

وفى تلك الفترة حالكة الظلام من تاريخ مصر الإسلامية، كانت (الإسكندرية) قد تراجعت قيمتها بعد أن نُقلت منها العاصمة فى عهد الفاتح العظيم (عمرو بن العاص) إلى مدينة (الفسطاط)؛ لتصبح أولى عواصم مصر الإسلامية، ولتشهد (الإسكندرية) خلال تلك الفترة- وقبل استيلاء (الفاطميون) على مصر- مجىء الكثيرين من العلماء المغاربة والأندلسيين من أهل السنة والجماعة هرباً بدينهم وصحيح عقيدتهم، لتصير الإسكندرية حينذاك معقلاً للمذهب (السنى) فى شمال إفريقيا، فى فترة تبنت فيها الدولة الفاطمية المذهب (الشيعى)، ليجد العلماء من المنتمين للمذهب (السنى) ضالتهم فى اتباع ودراسة منهاج مذهبهم فى (الإسكندرية).

ومع استيلاء (الفاطميون) على مصر وتأسيسهم للقاهرة، وجد هؤلاء الفرصة سانحة فى مدينة (الإسكندرية) لتجميع العلماء من أهل السنة والجماعة، بعيداً عن حاضرة ملكهم فى (القاهرة) حيث مركز نشر مذهبهم الشيعى، ولتؤسس فيها (المدرسة السلفية) التى أنشأها الوزير (ابن سلار) وزير الخليفة (الظافر بأمر الله) عام (٥٤٦هـ)؛ ليقوم عليها الفقيه (الحافظ أبو طاهر عماد الدين السلفى الأصفهانى)، الذى استوطن الإسكندرية منذ عام (٥١١هـ)، لتصبح الإسكندرية مركزاً ومعقلاً لحفظ المذهب (السنى) فى مصر والشمال الإفريقى حينذاك، فى حين اعتنقت الدولة رسمياً المذهب (الشيعى)، وتصير الإسكندرية قبلة للعلماء (السنة) القادمين من كافة البلاد والأمصار الإسلامية.

ومن هؤلاء العلماء نجد الكثير من الأسماء المعروفة للعامة اليوم، حيث أطلق مسمى الكثير منهم على العديد من أحياء ومناطق الإسكندرية ومساجدها، ومنهم الفقيه العلامة (سيدى بشر الجوهرى) صاحب المسجد والحى الشهير الذى لا يزال يحمل اسمه بالإسكندرية حتى الآن، وهو الشيخ (بشر بن الحسين بن محمد بن عبد الله الحسينى بن بشر الجوهرى)، ويقال أنه وفد إلى الإسكندرية فى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الهجرى؛ ليتجمع حوله علماء الثغر والمريدين.

كان سيدى (بشر الجوهرى) عالماً متصوفاً زاهداً معتزلاً للعالم فى تلك البقعة النائية على شاطىء البحر فى أقصى الشرق من المدينة؛ وحيث كان رواده ومريدوه يزورنه لينهلوا من علمه ويتتلمذون على يديه، ومنهم الفقيه العالم (الحافظ أبو طاهر السلفى) صاحب (المدرسة السلفية)، والذى أخذ عنه علوم الحديث والفقه، حيث وصف أساتذه ومعلمه (سيدى بشر) بحلاوة الوعظ وقوة الحجة والتبحر فى علوم اللغة، واستمر سيدى (بشر الجوهرى) على حاله كذلك معتزلاً للدنيا فى تلك المنطقة المتطرفة فى أقصى الشرق من مدينة الإسكندرية، حتى توفى عام (٥٢٨ هـ- ١١٣٤م) ليدفن فى ضريح أقيم فى ذات المنطقة التى عاش بها على ربوة تشرف على البحر فى الجهة التى حملت اسمه بعد ذلك وعرفت بمسمى (سيدى بشر).

واستمرت (الإسكندرية) كذلك بعد زوال الغمة وانتهاء دولة الفاطميين على يد القائد (صلاح الدين الأيوبى) عام (١١٧١م- ٥٦٧هـ)، ليبزغ فيها العديد من العلماء الآخرين، ومنهم العالم الشيخ (محمد القبارى)- والذى يقع مسجده وضريحه بذات الحى المسمى بإسمه حتى الآن، وعن ذلك العالم الصالح يذكر (ابن كثير) أن الشيخ (القبارى السكندرى) هو ذاته الشيخ الصالح (محمد بن منصور بن يحيى)، المكنى (أبا القاسم القبارى السكندرى)،

ولد الشيخ (القبارى) بالإسكندرية عام (١١٩١م)، فى فترة تولى السلطان الناصر (صلاح الدين الأيوبى) الفاتح العظيم مقاليد حكم مصر، وكان رجلاً مؤمناً شديد الإيمان زاهداً مصلحاً، كما كان له بستان فى منطقة شرق المدينة يزرع فيه الثمار على أنواعها، لكنه اشتهر بزراعة ثمرة (الكبار)، وهى ثمرة تشبه التفاح الأخضر الصغير، اشتهر زاهد الإسكندرية (أبو القاسم محمد بن يحيى القبارى) بزراعتها وتعامل بمقايضتها فاشتهر بها، وانتسب إليها فأطلق عليه (القبارى)، وقد كانت فلسفته الدينية تقوم على الزهد والبعد عن الحرام والشبهات، حتى ليقال أنه كان يزرع الكروم ويجنى ثماره من العنب فيأكله ولايبيع منه شيئاً؛ خوفاً من أن يستخدمه الشارى فى عمل الخمر المحرم، كما يحكى عنه أنه كان إذا مشى فى طريق وأمطرت السماء سارع قدر الإمكان خوفاً من أن يستظل بسقيفة غيره دون أن يسمح له بذلك فيقع فى حرام، وقد توفى عام (١٢٦٣م)، بعد أن تخطى السبعين من عمره، وذلك فى فترة حكم السلطان (الظاهر بيبرس)، والذى التقى بالزاهد (القبارى) طالباً منه النصح والدعاء حين بلغت سيرته السلطان؛ فقام بزيارته فى الإسكندرية عام (٦٦٢هـ- ١٢٦٣م) فى ذات العام الذى توفى فيه، وهو ما رصده المؤرخ (المقريزى) فى خطته الشهيرة؛ وليصلى عليه أهل الشام كذلك فى (دمشق) صلاة الجنازة بعد وفاته بشهر لما وصلهم من سيرته وتقواه، كما نعاه شيخ الإسلام (العز بن عبد السلام)، والذى عاصر زمن (القبارى) لما عرفه عنه من تقوى وصلاح.

كما كان من علماء (الإسكندرية) خلال تلك الفترة كذلك الشيخ (الشاطبى)، وهو الشيخ (أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى)، حيث كنى بالشاطبى نسبة إلى مدينة (شاطبه) الواقعة فى شرق (الأندلس) التى ولد بها عام (٨٥٨ هـ- ١١٨٨م)، كان الشيخ (الشاطبى) زاهداً مقرئاً متصوفاً، نزح إلى (دمشق)، ومنها إلى مصر حيث استقر بالإسكندرية وأقام بها فى أحد (الأربطة) الشهيرة، واشتهر الشيخ (الشاطبى) خلال تلك الفترة بالورع والتدين والزهد والتصوف والتعبد، ويذكر المؤرخ (المقريزى) فى خطته كيف أن الشيخ (الشاطبى) قد وصل إلى درجة من الشهرة حتى بلغت سيرته كذلك سلطان مصر حينذاك- السلطان (الظاهر بيبرس)، حيث قام بزيارته فى الإسكندرية عام (٦٦٢هـ- ١٢٦٣م)، والتقى السلطان بالإمام الورع (الشاطبى) وجلس إليه طالباً الدعاء والنصح، كما كان (الشاطبى) فى زمانه معاصراً للزاهد الناسك الشيخ (القبارى)، حيث زاره كذلك السلطان (الظاهر بيبرس) فى أثناء رحلته تلك إلى الإسكندرية، ليظل الشيخ (الشاطبى) مقيماً بالإسكندرية زاهداً متعبداً متصوفاً، حتى توفى بها عام (٦٧٢هـ- ١٢٧٣م) عن خمسة وثمانون عاماً، كان الشيخ (الشاطبى) من العلماء المرموقين؛ شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أبناء (الأندلس) حيث ترك المؤلفات العديدة التى تنسب إليه فى علوم القرآن والتفسير وغيرها، ومن أشهرها كتاب بعنوان (زهر العريش فى تحريم الحشيش)، وليدفن فى ذات المنطقة التى انتسبت إليه بعد ذلك تحت مسمى (الشاطبى)، وهو المسمى الذى ينسب لمدينته التى شهدت مولده بالأندلس مدينة (شاطبة).

ومن هؤلاء العلماء السكندريين كذلك الإمام العالم (سيدى جابر)، وهو الشيخ (جابر بن إسحاق بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الأنصارى)، والمكنى بلقب (أبى إسحاق)، حيث يرجع البعض نسبه إلى الأنصارى الجليل الصحابى (سعد بن عبادة) سيد الخزرج، ولد العارف بالله سيدى (جابر الأنصارى) فى (الأندلس) فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، لينزح إلى مدينة (فاس) ببلاد (المغرب) بعد ذلك، ثم ينتقل إلى (طرابلس) ومنها وفد إلى مصر حيث قضى بعض الوقت بالقاهرة فى ضيافة قريب له من المتصوفة، حيث تتلمذ على يديه وأخذ من علمه، وبعد وفاة قريبه هذا ارتحل (سيدى جابر) إلى الإسكندرية، حيث انعزل خارج المدينة، وابتنى لنفسه زاوية فى ضاحية الرمل خارج نطاق العمران، حيث ظل مقيماً بها يلقى دروسه على أتباعه حتى توفى عام (٦٩٧ هـ- ١٢٩٧م) عن عمر يناهز التسعين، وكان (سيدى جابر) شيخاً صالحاً كثير الأتباع وله العديد من الدراسات الدينية والفقهية، كما كان مهتماً بعلوم اللغة والنحو، ومن مؤلفاته (إيجاد البرهان فى إعجاز القرآن)، و(الإعراب فى ضبط عوامل الإعراب) وغيرها.

كما يحفظ لنا التاريخ السكندرى العديد والعديد من سير هؤلاء العلماء الأجلاء ومنهم الشيخ الأشهر (أبى العباس المرسى) والمتوفى عام (١٣٣٢م)، وكذا الشيخ (ياقوت العرش)، والشيخ (شمس الدين محمد بن أحمد عبد المؤمن بن اللبان الأسعردى) المكنى (ابن اللبان) والمتوفى عام (١٣٤٩م)، والذى كان أحد أعلام مذهب (الشافعية) فى عصره، وحيث لا يزال أحد أهم أحياء (الإسكندرية) يحمل مسماه- حى (اللبان)- وللآن، وغيرهم الكثير والكثير.

ومع بزوغ فجر (الأزهر) حاملاً لراية التوحيد وراعياً لمذهب أهل السنة والجماعة؛ كان انتقال قلعة العلم من (الإسكندرية) إليه، ليبقى تاريخ هؤلاء العلماء الأجلاء وعلمهم شاهداً على عصر كانت (الإسكندرية) فيه حاضرة لمذهب أهل السنة والجماعة.